المحاضرة الأولى : ما النقد؟

عناصر المحاضرة:

-مفهوم النقد لغة.

-مفهوم النقد اصطلاحا.

-تطور مفهوم النقد عند العرب القدامى.

-تطور مفهوم النقد في العصر الحديث.

النقد لغة :

ورد في لسان العرب " النقْدُ و التَّنْقادُ: تمييزُ الدراهِم وإِخراجُ الزَّيْفِ منها؛ أَنشد سيبويه :

تَنْفِي يَداها الحَصَى، في كلِّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدَّنانِيرِ تَنْقادُ الصَّيارِيفِ

ورواية سيبويه: نَفْيَ الدراهِيمِ، وهو جمع دِرْهم على غير قياس أَو دِرْهام على القياس فيمن قاله وقد نَقَدَها يَنْقُدُها نَقْداً وانتَقَدَها وتَنَقَّدَها ونَقَدَه إِياها نَقْداً: أَعطاه فانتَقَدَها أَي قَبَضَها...ونقَدْتُ الدراهم وانتَقَدْتُها إِذا أَخْرَجْتَ منها الزَّيْفَ. " (1) و إذا تتبعنا معاني لفظة "نقد" في القواميس العربية الأخرى سنجدها تدور في مجملها حول مسألة تمييز جيد الدراهم من رديئها، كما يضاف أحيانا معنى "كشف العيوب" إلى المعنى السابق ، يقول أبو الدرداء :" "إن نقدت الناس نقدوك"؛ أي: عبتهم واغتبتهم"(2) و أما في اللغة الأجنبية فإن كلمة نقد تقابلها كلمة critiqueحيث يعني الفعلcritiquer في قاموس لاروس إصدار حكم سيئ عن شخص أو شيء باستخراج العيوب و الأخطاء:" Porter sur quelqu'un, quelque chose un jugement défavorable en en faisant ressortir les défauts, les erreurs, etc » (3)

و لعل هذا المعنى اللغوي الأصلي لفعل نقد سيلتصق كما سنلاحظ إلى فترة طويلة بمفهوم النقد الأدبي من الناحية الاصطلاحية.

النقد اصطلاحا : إذا تتبعنا تطور مفهوم كلمة نقد "سنجد أنّها ظهرت في بادي ء الأمر في المجال الفلسفي للدّلالة علي تصحيح الأخطاء النّحوية أو إعادة صياغة كل ما هو ضعيف في المؤلّفات الأدبيّة اليونانية ثمّ تطوّر ذلك المصطلح في القرنين السابع والثّامن عشر، واتّسعت حدوده حتّي شملت وصف وتذوق المؤلّفات الأدبيّة في وقت معا"(4) ففي البدء كان المفهوم–عند العرب و عند الأمم الأخرى– يتمحور حول التصحيح و التقويم و الفرز ثم اتسع المفهوم شيئا فشيئا و تجاوز مسائل المعايير و الصحة و الخطأ ليرتبط بكيفيات تذوق الأثر الأدبي و التفاعل معه تفاعلا كليا ، يقول إحسان عباس :" "النقد في حقيقته تعبيرٌ عن موقفٍ كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامَّةً، أو إلى الشِّعر خاصَّةً، يبدأ بالتذوُّق؛ أي: القدرة على التمييز، ويعبرُ منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، خطوات لا تُغنِي إحداها عن الأخرى، وهي متدرجةٌ على هذا النسق؛ كي يتَّخذَ الموقف نهجًا واضحًا، مؤصلاً على قواعد – جزئيَّة أو عامَّة – مؤيدًا بقوَّة الملكة بعد قوَّة التمييز "(5) و هذا التصور يُحوْصل في الواقع العملية النقدية و ما آلت إليه بعد تجاوز مراحل النقد الانطباعي البسيط وبعد أن صارت تتكئ على قواعد موضوعية وإجراءات منهجية في ظل التأثير الحداثي و محاولة عقْلنة الفعل القرائي و علمنة النقد الأدبي بوصفه نشاطا إنسانيا نوعيا و ظاهرة فكرية تتخلق في شروط موضوعية.

–تطور مفهوم النقد عند العرب القدامى:

مارس العرب النقد الأدبي منذ العصر الجاهلي ، أي أن عملية النقد رافقت الأدب منذ وجوده ، و إن اختلفت طبيعة هذه العملية من مرحلة إلى أخرى ، و اختلف مفهوم النقد بالتالي تبغا لتلك الممارسة. ففي العصر الجاهلي مورس النقد في شكل ملاحظات جزئية تشي بإحساس الناقد نحو ما يسمعه من النصوص التي يتلقاها بفطرته و ذوقه اللذان لا يستندان إلى معايير موضوعية ، يقول مصطفى عبد الرحمن :" ومن هنا وجد النقد الأدبي في الجاهلية لكنه وجد هَيِّناً يسيرا، ويتمظهر هذا النقد بشكل جلي في أسواق العرب التي كان يجتمع فيها الناس من قبائل عدة وكثرة المجالس الأدبية التي عُدَّت بمثابة النواة الأولى للنقد العربي من قبيل سوق عكاظ الذي كان سوقا تجارية يباع فيها طريف الأشياء وكان يأتيها العرب من كل فج، من أبرز حكامه النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة حمراء من

جلد، وكانت كلمته هي الفاصلة، وإذا ما أعجبته قصيدة انتشر ذكرها في الجزيرة وتناشدها العرب في كل مكان..." (6) و تبعا لذلك انتشرت تسميات للشعراء تصنف قرائحهم وتعكس مراتبهم في سلم الشعر، من ذلك : الفحل ، الخنديد ، الشاعر ، الشعرور ...إلخ. و على كل لم يتبلور مفهوم للنقد الأدبي في هذا العصر خارج هذه التصنيفات و تلك الملاحظات .

على خلاف عصور الأدب العربي الأولى تميز العصر العباسي بالطابع "العلمي" في جميع المجالات مما كان له انعكاس هام على تطور مفهوم النقد الأدبي "فمنذ هذا العصر أخذ النقد الأدبي يخطو خطوات جديدة في سبيل تكوين بنائه و إقامة منهجيته بحكم اتجاهه نحو الثقافة يأخذ منها ما يدعم الطبع و الذوق و ينمي ملكة التقويم و أخذ أعلامه يصدرون في أحكامهم عن ذوق تدعمه المعارف و تغذيه الثقافات"(7) ولعل هذه الثقافات حولت مفهوم النقد في العصر العباسي إلى كونه ممارسة تتشح بوشاح الموضوعية ، و بدا ذلك واضحا في طبقات ابن سلام الجمحي و في موازنات الآمدي و في تنظيرات قدامة بن جعفر حول النص الشعري، و غيرهم ممن اهتموا بالفعل النقدي.

تطور مفهوم النقد في العصر الحديث:

منذ أن تمردت الحداثة الغربية على الكنيسة ، و أعادت الاعتبار للعقل الإنساني ،حصلت رجة عظيمة في تاريخ الفكر الإنساني كان لها انعكاساتها على جميع الحقول المعرفية ، سواء تعلق الأمر بالحقول التجريبية أو العلوم الإنسانية . و إذا بحثنا في مجال النقد الأدبي ، سنجد زخما كبيرا في النظريات و المناهج النقدية التي أسست لها فلسفات متباينة ، ما أدى إلى تباين مفهوم النقد الأدبي من مرحلة إلى أخرى بل إن المتتبع يلاحظ ذلك التباين حتى في الفترة الزمنية الواحدة .و على العموم فكل نظرية من نظريات الحداثة أفرزت مفهوما جديدا للنقد ، فلم يعد هذا المفهوم معنيا بتمييز جيد النصوص من رديئها ، بل انطلق في عوالم أخرى مركزا حينا على السياق ، و حينا آخر على مؤلف النص ، وأحيانا أخرى على النص نفسه ، و بعد تلك التجاوزات المتواصلة حصل التجاوز الأكبر حين امتلك القارئ كل السلطة و صار النقد "فعل قراءة" "ينكتب" من خلاله الناقد، و يعيد بناء المعنى المؤجل باستمرار.